الباب الخامس

مفهوم التربية عند ابن باديس

- مقترحات ابن باديس لتغيير المنهجية في التربية والتعليم.
- مجهودات ابن باديس التعليمية.
- المحاور العلمية والدينية والثقافية لابن باديس والعلماء.
- موقف الاستعمار الفرنسي من مجهودات ابن باديس.
- التربية الأخلاقية عند ابن باديس.

مفهوم التربية عند ابن باديس

الشيخ عبد الحميد بن باديس بلا شك «مرب عظيم» استطاع أن يربى أجيالا من الجزائريين، كانت أساسا لنهضة الجزائر العربية الإسلامية الحديثة، فقد أدرك منذ البداية أنه ما من أمة يمكن أن تنهض حقيقة إلا عن طريق التربية، وأن هذه التربية لاتكون مجدية إلا على أساس من تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق.

ورأي ابن باديس أن الأخلاق هى التى تنبع من أعماق الضمير المتدين لا من قهر المجتمع؛ لأن صوت الضمير أقوى من مئات القوانين، يقول فى كلمة له:

«إن الخلق القويم لابد أن يكون نتيجة تطابق الباطن مع الظاهر» واعتبر ابن باديس أن مصدر هذا الخلق القويم هو القرآن الكريم، ولهذا سعى إلى نشر وتعليم القرآن من أجل تحصين المجتمع الجزائرى المسلم وإعداده بتربية الناشئة والكبار تربية إسلامية كاملة، إذ إنه كان يرى أن التعليم مهمة سياسية على المدى البعيد، إنها مرتبطة تماما مع المهمات الأخرى الثقافية والاجتماعية، كما اعتبر أيضا التفقه فى الدين أمراً ضروريا لأنه يحول دون نجاح مؤامرات الاستعمار للقضاء على الثقافة الإسلامية، وفى هذا الصدد يقول ابن باديس مخاطبا الشعب الجزائرى:

« . . . أيها الشعب المسلم الجزائرى الكريم! تالله لن تكون مسلما إلا إذا حافظت على الإسلام، ولن تحافظ عليه إلا إذا فقهته، ولن تفقه إلا إذا كان فيك من يفقهك فيه، ولهذا فرض الله على كل شعب إسلامى أن تنفر منه طائفة لتتفقه فى الدين، وترجع إلى قومها بالإنذار، فبذلك يرجى لهم الرجوع إلى الله، وما هو إلا الرجوع من الضلال إلى الهدى، ومن الباطل إلى الحق، ومن الاعوجاج إلى الاستقامة.

أما أبناؤك الشبان حملة القرآن فقد هبُّوا هبة رجل واحد لطلب العلم والتفقه فى الدين، يحملون الإيمان فى قلوبهم والقرآن العظيم فى صدورهم، والروح الجزائرية

المسلمة فى لحومهم ودمائهم، لا يقصدون إلا أن يتعلموا فيعلموا، ويتفقهوا فيفقهوا، ولا يرجون من ذلك إلا رضا الله ونفع عباده».

إن اقتناع ابن باديس بأهمية نشر وتقوية الوازع الدينى والخلقى فى نفسية الشعب الجزائرى المسلم هو الذى جعله ينادى بضرورة حفظ القرآن الكريم والتدبر فى معانيه، والعمل به اقتداء بالسلف الصالح، لأن القرآن هو الذى «كوّن رجال السلف، ولايكثر عليه أن يكوّن رجالا فى الخلف لو أحسن فهمه وتدبره، وحملت الأنفس على منهاجه» ولابد إذن أن «نربى تلاميذنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن فى كل يوم، وغايتنا التى ستحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها، وفى سبيل تكوينهم تلتقى جهودنا وجهودها».

ومادام الفرد المسلم هو محور العملية التعليمية عند ابن باديس والتى أساسها التثقيف الإسلامى لمحاربة التغريب والفرنسة فإن صلاح المجتمع فى رأيه، لا يكو ن إلا بصلاح الفرد، وإصلاح الفرد لا يكون إلا بتطهير نفسه وعقله من ثقافة الغرب.

وفى هذا المعنى يقول ابن باديس:

«فصلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى صلاح النفوس، إما مباشرة وإما بواسطة، فتكميل النفس هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل وشرع الشرائع».

إن هدف التربية إذن عند ابن باديس هو هدف أخلاقى وهو تطهير النفس، إنه «تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر، وفى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله».

وقد حلل أحد البُحَّاث الهدف التربوىّ عند ابن باديس إلى عدة نقاط يمكن تلخيصها فيما يلى:

أولا: تستهدف التربية عند ابن باديس تأهيل الشعب العربى الجزائرى وتنمية قدراته العقلية والاجتماعية والخلقية والاقتصادية والسياسية لكى يتوصل بالنتيجة إلى حياة أفضل فى مجتمع أفضل.

وفى هذا الصدد يقول ابن باديس: «على المربين لأبنائنا وبناتنا أن يعلموهم ويعلموهن هذه الحقائق الشرعية ليتزودوا ويتزودن بها، وبما يطبعونهم ويطبعونهن عليه من التربية الإسلامية العالية لميادين الحياة».

ثانيا: وتستهدف التربية عند ابن باديس الدفاع عن الشخصية الجزائرية، والحفاظ على خصوصية الشكل التاريخى الجزائرى الذى لا علاقة أصلا لفرنسا به لا من قريب ولا من بعيد»

يقول ابن باديس: «الأمة الجزائرية المسلمة أمة متكوّنة موجودة، كما تكوّنت ووجدت كل أمم الدنيا، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمة فى الدنيا، ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هى فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هى بعيدة عن فرنسا كل البعد فى لغتها، وفى أخلاقها، وفى عنصرها، وفى دينها. لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدد معين هو الوطن الجزائرى».

ولقد ساهمت آراء ابن باديس أولا فى توضيح مكامن الخطر السياسى والاقتصادى والثقافى.

وساهمت ثانيا فى إعداد جيل قادر على المواجهة والتحدى فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية.

(أ) فمن الناحية السياسية: عمل ابن باديس بنشاط مكثف من أجل الدفاع عن وحدة البلاد، ومحاصرة محاولة التفريق بين أبناء البلد الواحد. وفى هذا الصدد يقول: «لقد كتب أبناء يعرب . . آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون [الطويلة] بما أراقوا من دمائهم فى ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محابرهم فى مجالس الدرس لخدمة العلم . . فأى قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم؟ لولا الظنون الكواذب، والأمانى الخوادع.

يا عجبنا لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القوى؟ كلا والله، بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة فى اتحادهم وقوة لرابطتهم».

(ب) ومن الناحية الاقتصادية: عمل ابن باديس على تربية الجزائريين على التقشف والمعاناة، وحصن نفوسهم وخاصة الفقراء منهم ضد محاولات الإغراء التى يبذلها الفرنسيون، وفضح الرأى الفرنسى الذى يصور أن حاجة الجزائرى محصورة بالحصول على الخبز، وقد ركز ابن باديس على هذا الجانب كثيرا حيث قال: «نحن المسلمين ربينا

تربية إسلامية على إلفة الجوع، والتقليل من الأكل والاقتصاد على قدر الحاجة، فطعام الواحد منا يكفى اثنين، وطعام الاثنين يكفى الأربعة، بهذه التربية استطعنا أن نبقى وأن نعيش . . . وقد جهل قوم الفرنسيين هذا الخلق منا فحسبوا ـ وهم جد عالمين بما الأمة فيه من جوع وفاقة ـ أننا قوم لانريد إلا الخبز، وأن الخبز عندنا هو كل شيء، وأننا إذا ملئت بطونُنا مَهَّدنا ظهورنا . . . لا ياقوم، إننا أحياء، وإننا نريد الحياة، وللحياة خُلقنا، وإن الحياة لا تكون بالخبز وحده، فهنالك ما علمتم من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكلها ضروريات فى الحياة، ونحن نفهم جيدا ضرورياتها للحياة».

(جـ) ومن الناحية الثقافية: تمكن ابن باديس بواسطةالتعليم والتربية الدينية عن طريق تفسير القرآن الكريم وتدبر معانيه من خوض معركة قوية ضد القرارات الفرنسية التى استهدفت القضاء على اللغة العربية. وفى هذا الصدد يقول:

«اللغة العربية لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة، وهى الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهى وحدها المقياس الذى نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتى بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين أرواحهم بأرواحنا، وهى وحدها اللسان الذى نعتز به، وهى الترجمان عما فى القلب من عقائد، وما فى العقل من أفكار، وما فى النفس من آلام وآمال» فهى إذن خطر على فرنسا، ولهذا فقد منعت تعليمنا بواسطتها.

ثالثا: كان لابن باديس دور تاريخى مهم فى محاربة الأفكار الفاسدة التى تنشرها بعض جماعات الطرق باسم الإسلام، وخاصة وأن لهذه الطرق ومشايخها نفوذا كبيرا عند الأهالى بسبب ارتباطها بالإسلام؛ لذلك رأى ابن باديس ضرورة المباشرة بتربية مضادة توصل إلى الجزائريين الإسلام الصحيح، وتطرد من نفوسهم الإسلام المشوه الذى أثقل «بالخرافات المخزية» والذى يعتبره ابن باديس . . لا يمت إلى توحيد محمد بغير صلات بعيدة، فقد حلت محله باطنية باطلة وعبادة للأولياء والأضرحة استغلت بمهارة من قبل مشايخ جاهلين موزعين لتمائم وتعاويذ عن طمع فى الغالب».

إن الأوضاع الطرقية فى نظر ابن باديس «بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو من الشيخ، والتحيز لأتباع الشيخ، وخدمة دار الشيخ، وأولاد الشيخ، إلى ما هنالك من استغلال وإذلال وإعانة لأهل الإذلال والاستغلال، ومن تجميد للعقول، وإماتة للهمم، وغير ذلك من تلك الشرور».

ولهذا فقد شن ابن باديس حربا شعواء ضد الطرقية والطائفية لكي يخلص جماهير الشعب من خرافاتهم وتدجيلهم واستغلالهم، لكي تصبح عقيدة الجزائريين سليمة صافية من كل البدع والضلالات والخرافات والشعوذات، وقد كانت حربه ضد جماعات الطرق قوية وعنيفة مثل حربه ضد الاستعمار الفرنسي الذي حاول أن يمنع الجزائريين من دراسة أصول دينهم وتاريخهم الإسلامي، ولغتهم العربية.

من هذا المنطلق كان الإطار التربوي الذي وضعه ابن باديس هو إطار هدم وتحصين:

(أ) هدم ما تسرب إلى العقلية الجزائرية من ثقافة تدفعها إما للخضوع للبدع والأباطيل أو للقبول بالذوبان في حضارة الغرب.

(ب) تحصين للفرد في مواجهة تغريبه وتأمين قدرته على الصمود ضد التغريب وضد البدع.

يقول ابن باديس: «نعرف كثيراً من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضاننا ينكرون ـ وربما عن غير سوء قصد ـ تاريخنا ومقوماتنا، ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا في غيرنا، وكنا نرد عليهم في كل مناسبة تبدو منهم فيها مثل هذه البوادر الخاطئة».

مقترحات ابن باديس لتغيير المنهجية في التربية والتعليم

وحتى يستطيع ابن باديس تحقيق الأهداف التربوية المرجوة والتي بينها محاربة الأفكار الفاسدة والتغريب، فقد اقترح جملة من التغييرات تضمنت أفكاراً تتعلق بمناهج التعليم وطرقه، وكذلك بعملية إعداد المعلمين، وقد لخصها أحد البُحَّاث في الآتي:ـ

١ـ **اللغة العربية**: ويشترط في تدريسها تطبيق قواعدها على الكلام الفصيح لتحصيل الملكة، وأما قراءتها بلا تطبيق ـ كما هو يجري حاليا ـ فتضييع وتعطيل وقلة تحصيل.

٢ـ **الأدب العربي والإنشاء**: يعلم حسن الأداء في القراءة وإلقاء الكلام.

٣ـ **العقائد**: ويجب أن تؤخذ مع أدلتها من آيات القرآن الكريم، فإنها وافية بذلك كله، فأما إهمال آيات القرآن المشتملة على العقائد وأدلتها والذهاب مع تلك الأدلة الجافة ـ آراء علماء الكلام ـ فإنه من استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

٤ ـ **الفقه:** ويجب أن يقتصر على المسائل دون تشعباتها، ثم يترقى إلى ذكر بعض أدلتها.

٥ ـ **أصول الفقه:** مسائل مجردة ثم يترقى إلى تطبيقها على المسائل الفقهية لتحصل لهم، من هذا ومن ذكر المسائل الفقهية كما تقدم، ملكة النظر والاستدلال.

٦ ـ **التفسير:** هنا يرى ابن باديس عرض «تفسير الجلالين» على المتعلم بشرط أن يشرح الأستاذ الأشياء التى تحتاج إلى شرح من مفردات ومعان غامضة.

٧ ـ **الحديث:** وطريقة تدريسه هى الطريقة نفسها لتدريس التفسير.

٨ ـ **التربية الخلقية:** يعتمد فى تدريسها على آيات وأحاديث وآثار السلف الصالح.

٩ ـ **التاريخ الإسلامى:** يدرس باختصار.

١٠ ـ الحساب.

١١ ـ الهندسة.

١٢ ـ الفلك.

١٣ ـ مبادئ الطبيعة.

١٤ ـ الجغرافيا بجميع أقسامها.

هذا كله بالإضافة إلى المنهج المعروف للتعليم العام، فقد اقترح ابن باديس مناهج خاصة لكل مجال من مجالات التخصص، ففى إعداد مجال المعلمين ـ مثلا ـ اقترح المواد التالية:

١ ـ التوسع فى دراسة العلوم التى يقومون بتدريسها بعد تخرجهم.

٢ ـ دراسة كتب التربية وعلم النفس.

٣ ـ التربية العملية أو التمرين العملى على التدريس بالقيام به فعلاً.

أما فى مجال القضاء والقانون، فقد اقترح ابن باديس تدريس المواد التالية:

(أ) فقه المذاهب.

(ب) الفقه العام.

(جـ) دراسة الآيات والأحاديث المتعلقة بالأحكام.

(د) الحساب.

(هـ) علم الفرائض.

(و) علم التوثيق .
(ز) الفقه المقارن أو الاطلاع على مدارك المذاهب .

ولأن ابن باديس كان مربيا بالدرجة الأولى فلم يكتف فقط بتقديم المتغيرات المنهجية، بل إنه كان يمارس العمل التربوى نفسه على مستويين :

الأول: مستوى دينى لغوى فى المسجد (الجامع الأخضر) بقسنطينة .

الثانى: مستوى مدرسى ممزوج بصبغة دينية ـ لغوية ـ فى (مدرسة التربية والتعليم الإسلامية) بقسنطينة .

وكان ابن باديس يقوم بهذا العمل التربوى التعليمى للجيلين .

أولا: جيل الصغار، وهو على نوعين :

(أ) نوع يتابع تعليمه اليومى فى المدارس الفرنسية، ثم يأتى إلى ابن باديس ليتعلم مبادئ اللغة العربية والدين .

(ب) أما النوع الثانى فهو لايذهب إلى المدارس الفرنسية، بل يتلقى كامل تعليمه على يد ابن باديس .

ثانيا: جيل الكبار، كان يعلمهم ابن باديس القرآن الكريم وتفسيره وتجويده، والحديث النبوى والفقه والأخلاق، واللغة العربية وآدابها، والمنطق والرياضيات .

وبالإضافة إلى هذا كله كان للمرأة العربية الجزائرية حظ كبير فى تفكير وآراء ابن باديس التربوية حيث ساعد على فتح مدرسة خاصة تعلم الفتيات «تعليما دينيا صحيحا، يتفق وما تصبو إليه من اقتران ذلك التعليم بالحشمة والفضيلة والعفة والصيانة، ونفض تلك الأسمال من العرف الذى يوجب على الفتاة حرمانها من المعرفة والثقافة العلمية الدينية الصحيحة، ومن كل ما يؤهلها لأن تكون فتاة جديرة بالحياة» .

وأيضا من آراء ابن باديس التعليمية ضرورة التوافق والانسجام بين العلم والعالم والتعليم، بمعنى التكامل بين العناصر الثلاثة وصلاحيتها للإنسان المسلم .

أما صلاح العلماء عند ابن باديس فهو أمر ضرورىّ ؛ لأن فساد العلماء أخطر وأسوأ بكثير من فساد المناهج وطرق التدريس، يقول : «لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، فإن العلماء من الأمة بمثابة القلب إذا صلح، صلح الجسد كله، وإذا فسد،

فسد الجسد كله، وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام، وعلمهم به، وإنما يصل هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهل جمود فى العلم وابتداع فى العمل فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذى يطبع شخصيه المتعلم بالطابع الذى يكون عليه فى مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره، فاذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم».

ولهذا كان لدور التربية والتعليم، ولجهود ابن باديس فى هذا المجال دور كبير فى تعزيز ثقة الجزائريين فى أنفسهم التى كانت شبه منهارة آنذاك، ولعل مايريده ابن باديس من جهوده التربوية وإصلاحاته العملية فى مجالى العقيدة والأخلاق هو:

١ـ نهضة شعبية قوية تُجلى شخصية الشعب الجزائرى، وتكشف مجد الماضى بما ينير طريق الحياة من جديد.

٢ـ انقلاب جزائرى يتركز على إعداد نشء صالح تتمثل فيه (أصالة) الجدود، فينهض نهضة إسلامية عربية تأخذ من عظمة الماضى ويقظة الحاضر ما يعصمها من الزلل والانحراف وهى فى طريق المستقبل الباسم.

٣ـ وأخيرا إن مايريده ابن باديس هو دعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بالقرآن الكريم والصحيح من السنة الشريفة.

وبعد،

فلعل ما تقدم يبين لنا بوضوح مدى أهمية الدور التربوىّ المميز لابن باديس، وكيف كان يؤمن بفلسفة تربوية تستمد أصولها من القرآن الكريم خاصة، ومن الفكر الإسلامى عامة، وقد لاحظنا أن جهود وتجربة ابن باديس التربوية كانت تشكل مواجهة ناجحة ضد الغزو الثقافى ومحاولة التغريب والتشويه التى يقوم بها الاستعمار وبعض الفرق المشبوهة أو بتعبير آخر، إن إيمان ابن باديس ـ كما رأينا ـ بأهمية نشر القرآن الكريم وتعليم الفضائل وأصول الدين عن طريق تربية الكبار والصغار تربية إسلامية شاملة هو من أجل تحصين المجتمع الجزائرى المسلم ضد الخرافات والشعوذة والطائفية والطرقية وضد التغريب الثقافى والفَرْنَسَة.

وقد جعل ابن باديس «المسجد والتعليم صنوان» مؤكداً على ارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة ـ فكما لا مسجد بدون صلاة، كذلك لا مسجد بدون تعليم، وحاجة الإسلام إليه كحاجته إلى الصلاة، فلا إسلام بدون تعليم».

وهكذا كانت آراء ابن باديس الصائبة ومفهومه الواضح والصريح بالنسبة للعلم ومتلقيه والتعليم ومناهجه، والعلماء ومدى صلاحيتهم.

مجهودات ابن باديس التعليمية

رغم تعدد جوانب شخصية ابن باديس إلا أن أبرز جوانبها هو الجانب التعليمى الذى ركز عليه ابن باديس معظم نشاطاته، إذ بدأ حياته العملية معلما فى تعليم النشء، وكان يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر، ويقضى طوال نهار اليوم فى تعليم الأطفال علوم الدين الصحيحة وعلوم اللغة العربية فى مسجد سيد قموش، وكان لايستريح سوى ساعة بعد صلاة الظهر يصيب خلالها قليلا من الطعام، ثم يواصل عمله حتى صلاة العشاء، ثم ينتقل إلى التدريس بالجامع الأخضر حيث يواصل دروسه التفسيرية للقرآن الكريم على شيوخ وكهول مدينة قسنطينة من التاسعة مساءً وحتى منتصف الليل، داعيا إياهم إلى أن يغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله مابهم، استنادا إلى الآية القرآنية الكريمة :ـ

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد الآية ١١]

وكانت أقوال ابن باديس دائما ـ تدعو إلى تشجيع العلم، ومن ذلك قوله «اللغة هى القوة».

ولعله يفصح هنا عن خطته الرامية إلى إعداد أجيال من الشباب المثقف ثقافة عربية حتى يواجه بهم سياسة فرنسا الرامية إلى تذويب الشخصية العربية الإسلامية فى الجزائر الفرنسية.

أولا : دعوة ابن باديس التعليمية

قضى ابن باديس دراسته فى جامع الزيتونة بتونس (١٩٠٨ ـ ١٩١٢م) ورجع إلى الجزائر، حيث بدأ جهوده التعليمية سنة ١٩١٣م وهومدرك تماما أن السبيل الوحيد لمقاومة الاستعمار ليست المناورات السياسية وإنما هو الجهد المنظم على امتداد الزمن فى سبيل تعلم اللغة العربية ـ وتحرير الأمة الجزائرية من الجهل، لذلك شرع بن باديس يجوب قرى وبلاد الجزائر داعيا لأفكاره ومبادئه مخاطبا مواطنيه، محاضرا فيهم معلما

لهم فى المساجد والنوادى التى ساهم وجماعته فى إنشائها، معلنا ثورته التعليمية ضد الجهل.

ولعل الشيخ ابن باديس يشير إلى مواطن الداء لدى مواطنيه الذين يرزحون تحت الاحتلال الذى يحاول تذويب شخصيتهم، وتفريق كلمتهم ليجردهم من مصدر قوتهم، وكان ابن باديس يدعو تلاميذه إلى تجنيد مواطنيه.

(أ) نشاط عبد الحميد بن باديس التعليمى من المسجد:

وقد اتخذ ابن باديس من الجامع الأخضر مقرا لدعوته التعليمية، وتمكن بعد عدة سنوات من إنشاء مكتب كان بمثابة نواة للتعليم العربى الابتدائى فوق مسجد سيدى (بومعزة) إلى أن نقله بعد ذلك إلى بناية الجمعية الخيرية الإسلامية التى تأسست سنة ١٩١٧م ثم انتقل هذا المكتب إلى مدرسة عصرية كبيرة تتسع لأكبر عدد ممكن من الأطفال الراغبين فى الدراسة العربية وعلومها.

(ب) إعداد ابن باديس للشباب:

ولما كان ابن باديس يعول على الشباب الجزائرى فى بعث الثقافة العربية وشخصية الجزائر العربية الإسلامية، لذا دعا الشيخ ابن باديس سنة ١٩٣٣م جماعة من الشباب الأعضاء فى جمعية التربية والتعليم لتأسيس شعبة منهم باسم جمعية التربية الإسلامية، كما خصص لهم يوم عطلاته عن العمل وهو (الأحد) لإعدادهم إعدادًا ثقافيا باللغة العربية، وقسمهم إلى مجموعتين.

الأولى: تتلقى تعليمها فى الساعة العاشرة صباحًا.

الثانية: تتلقى تعليمها فى الساعة الثامنة مساءً.

وحتى يعمم ابن باديس اتجاهه العربى الإسلامى والإصلاحى، فإنه دعا مواطنيه إلى تأسيس جمعيات إصلاحية ـ على غرار جمعية التربية والتعليم بقسنطينة ـ فى كل بلد مذكرًا إياهم بارتباطهم المصيرى بدينهم الذى لن يبقى إلا بانتشار التربية والتعليم؛ حتى تستيقظ الهمم المخدرة من قبل الطرق الصوفية أعوان الاستعمار.

وكان ابن باديس قبل دعوته الإصلاحية للشباب الجزائرى قد ساءه المسلك

الاستعمارى التعليمى الذى أنسى شباب بلاده لغته ودينه وتاريخه، وقبح دينه وقومه، تاركًا إياه للحانات والمقاهى والشوارع.

ومن ثم كانت الجهود الإصلاحية لابن باديس وجماعته ممثلة فى المدارس والجمعيات والنوادى التى انبثقت عن جمعية العلماء الفرصة لتكوين جيل من الشباب يؤمن بوطنه الجزائر العربية المسلمة.

ثانيا، كيف أعد ابن باديس طلابه

كان ابن باديس قبل إعداده للشباب الجزائرى علميا يقسم طلابه إلى مجموعات جغرافية بحسب البلاد التى قدموا منها بهدف إحداث التعارف بين المجموعات وسهولة الاجتماعات بينها، كما كان يرأس كل مجموعة من هذه المجموعات عريف كان يخبر مجموعته بموعد الاجتماعات السياسية والاجتماعية، وكان الطلبة القدماء الذين تدربوا على فن الخطابة وكيفية طرْق الموضوعات يقومون بتدريب رفاقهم الجدد على المهمة نفسها، وكيفية مقاومة دعاية الطرق الصوفية وخرافاتها بالعودة إلى الكتاب والسنة، وكان ابن باديس يردد دائما: عمائمنا تيجان العرب.

ولعله كان يريد من وراء هذا القول إلى إظهار اقتداء جماعته بالحديث النبوى الشريف: «تعمموا فإن الشياطين لا تتعمم» وهذا يؤيد قولنا بانتماء العلماء إلى المدرسة السلفية.

ثالثا، الشروط الواجب توافرها فى تلاميذ ابن باديس

اشترط بن باديس على من يرغب فى الدراسة على يديه أن يكون حافظاً لربع القرآن الكريم على الأقل، وألا تتجاوز سنه الخامسة والعشرين وأن يحمل خطاب تزكية من كبير بيته أو عشيرته، وأن يأتى بفراشه وغطائه.

رابعا، نظام إشراف ابن باديس على طلبته

لم يكتف ابن باديس بجهده التعليمى، بل إنه أنشأ لجنة من أعضاء جمعية التربية والتعليم الإسلامية مهمتها العناية بالطلبة، ومساعدة المحتاجين منهم من الصندوق المالى الخاص بهذه المهمة، والذى كان يموله تبرعات المحسنين الذين تبرعوا بسخاء

بعدما شاهدوا جهود الشيخ ابن باديس من رعاية للطلاب من حيث : تعهده بتعليمهم وكفالته لإقامتهم وغذائهم ورعايته الصحية لهم، والتى تمثلت فى اتفاقية مع مجموعة من الأطباء الجزائريين لرعايتهم الصحية بدون أجر، وقد تمثلت هذه المجموعة فى الأطباء: ابن حلول وابن الموفق وزرقين.

خامسا: تعليم المرأة عن عبد الحميد بن باديس

تحمس ابن باديس إلى تعليم المرأة الجزائرية من وجهة نظر الشرع الإسلامى لها ولوظيفتها فى المجتمع، ودورها فى الحياة؛ لأن المرأة الجزائرية فى عصر ابن باديس لا تخلو من أحد أمرين :

الأمر الأول : محرومة نهائيا من التعليم بحيث لا تعرف قراءة أو كتابة.

الأمر الثانى : متعلمة تعليما أجنبيا سطحيا يعمل على استخفافها بعروبتها وإسلامها وتقاليدها الاجتماعية، فتصبح بالتالى متنكرة لأصلها وعروبتها وإسلامها، وهذا ما يرفضه الشيخ ابن باديس فى المرأة الجزائرية خاصة والمرأة الإسلامية بصفة عامة.

لذا وجد ابن باديس نفسه يحبذ الجاهلة التى تلد أبناء للأمة يعرفون وطنهم وقوميتهم عن المثقفة ثقافة أجنبية وتلد للأمة الجزائرية أطفالاً يتنكرون لعروبتهم وقوميتهم؛ لأن برامج المدارس الفرنسية تخطط لمسح المرأة العربية الجزائرية مسحا يمتد إلى الجيل الذى تربيه.

والواقع أن ابن باديس كان واعيا بأهمية تعليم المرأة الجزائرية وإن كان قد قصر تعلمها على الزاوية الدينية، والدليل على اهتمامه بقضية تعلم المرأة الجزائرية أنه عندما أنشأت جمعية التربية والتعليم الإسلامية مكتبا لتعلم البنين والبنات فإنه أجاز التعليم المجانى للبنات سواء القادرات أو العاجزات منهن عن دفع النفقات. أما البنون فلا يعفى غير العاجزين عن دفع النفقات التعليمية.

سادسا: خصائص تعليم عبد الحميد بن باديس

باشر عبد الحميد بن باديس نوعين من التعليم :

(أ) التعليم الدينى المسجدى:

ويتشابه مع نظام تعليم المعاهد الأزهرية بمصر، والزيتونة بتونس والقرويين بالمغرب، وقد استخدم هذا النمط التعليمى طريقة الإلقاء والمحاضرة والحوار والسؤال فى أثناء دروسه فى الأدب العربى والحضارة الإسلامية والبلاغة وتفسير القرآن الكريم وشرح الحديث، وقد درس هذا النمط التعليمى لمجموعة من التلاميذ صاروا فيما بعد من معاونى الشيخ عبد الحميد بن باديس الذين أسند إليهم مساعدته فى التدريس.

(ب) التعليم المدرسى الأصلى:

وهو ذو صبغة دينية ولغوية، وقد أقبل عليه نوعان من الأطفال:

النوع الأول : الأطفال الذين تابعوا دراستهم بالفرنسية ويحضرون للاستزادة فى تلقى اللغة العربية والقرآن الكريم والدين.

والنوع الثانى: الأطفال الذين لا مكان لهم فى المدارس الفرنسية ويتابعون مناهج المدرسة العربية مع تركيز على الجانبين الدينى واللغوى، ويلاحظ أن الكتب المدرسية كانت فى معظمها من الكتب المقررة فى المدارس المصرية فى ذلك العهد.

المحاور العلمية والدينية والثقافية لابن باديس والعلماء

سار ابن باديس والعلماء على محاور ثلاثة تمثلت فى جهودهم العلمية والدينية والثقافية.

فعلى المحور العلمى، كانت تدعو إلى العلم، ونشره عن طريق مدارسها ومساجدها ونواديها العديدة التى أسستها فى أنحاء الوطن الجزائرى.

أما على الصعيد الدينى، فقد بذلت جمعية العلماء جهودًا فى تعليم الدين الإسلامى وتطهيره من البدع والخرافات والعودة به إلى سيرة السلف الصالح الذى تبشر به الجمعية كحركة سلفية. أما العربية فهى لغة الدين، وهى والدين متلازمان، ومن ثم كانت الجمعية تركز فى دعوتها إلى تعلم الدين والعربية، وترغب فيهما الناس معًا.

أما عن المحور الثقافى، فقد تمثل فى تعميق الأخلاق الحميدة ـ التى دعا إليها الإسلام ـ فى نفوس طلاب مدارسها والقاصدين لمساجدها ورواد نواديها، ومحاربة الرذائل والأخلاق الفاسدة.

وكان ابن باديس وجماعته يهدفون بجهودهم على هذه المحاور إلى رفع مستوى مواطنيهم الجزائريين اجتماعيا ودينيا وعلميا وتوجيههم الوجهة الإسلامية، إلا أن هذه الجهود التى قام بها ابن باديس وجماعته لم تكن تتفق مع وجهة النظر الاستعمارية التى كانت ترمى إلى تذويب شخصية الشعب الجزائرى بمقوماته الأساسية.

ومن ثم كانت جهود ابن باديس أحد الأهداف الرئيسة التى يركز الاستعمار على ضربها والقضاء عليها.

موقف الاستعمار الفرنسى من مجهودات عبد الحميد بن باديس

لم تكتف الإدارة الفرنسية بالجزائر بإغلاق صحف العلماء وتحريم الوعظ عليهم فى المساجد التى تشرف عليها الإدارة الفرنسية، بل إنها شرعت فى اتخاذ القرارات التالية:

أولا : التقليل من منح الهيئات العلمية العربية المرخص لها ولمعلميها.

ثانيا : محاكمة المعلمين لعدم حملهم الرخصة.

ثالثا : إغلاق المدارس العربية الحرة.

رابعا : تعطيل النوادى الوطنية فلم تسلم هذه النوادى من محاربة الاحتلال بسبب دورها فى تهذيب الشباب وتوجيههم الوجهة العربية الإسلامية عن طريق نشاطاتها الدينية والثقافية والاجتماعية والرياضية، وقد انزعج الاحتلال لدور هذه النوادى، فبدأ فى محاربتها كما حارب المدارس من قبل والمعلمين أيضا [1].

وهكذا كان موقف الاستعمار الفرنسى من مجهودات ابن باديس، محاولات مستميتة وبكل الوسائل للقضاء على كل ما من شأنه خلق قاعدة وطنية صلبة مستنيرة، تعرف واجبها حيال دينها: الإسلام السمح القويم، وهويتها: العربية المسلمة.

التربية الأخلاقية عند ابن باديس

قدمت مجلة الجيش الجزائرية مجموعة حلقات بمناسبة الذكرى الواحدة والثلاثين لوفاة عبد الحميد بن باديس، خصصت واحدة منها حول التربية الأخلاقية، حيث قسمتها لمجالات ثلاث هى:

١ـ المنزل ٢ـ المدرسة ٣ـ المجتمع

---

(١) الاتجاه العربى الإسلامى، ودوره فى تحرير الجزائر ـ د/ نبيل أحمد بلاسى ص ٩٤.

أولا : المنزل :

يلعب المنزل دورا كبير الأهمية فى تشكيل أخلاق الطفل وسلوكه العام، وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية والنفسية والتربوية أن الأسرة هى المكان الطبيعى لتربية الأطفال وتزويدهم بالعوامل النفسية والثقافية اللازمة لنموهم وتقدمهم وحمايتهم من مساوئ الأخلاق ورذائلها، ولذلك يضع علماء التربية وعلماء الأخلاق المنزل فى المرتبة الأولى فى ناحية تربية الأطفال، وتوجيه أخلاقهم، إذ فى رحابه يفتح الطفل عينيه على العالم لأول مرة فى حياته، وفيه يلتقى بالمعلم الأول وهو الأم، وفيه يعرف معنى الخطأ والصواب، والحسن والقبيح، والحق والواجب، وفيه يتلقى المبادئ الأولية فى السلوك الاجتماعى، وفيه يتعلم اللغة، ويعرف معنى الملكية، كما يتلقى المبادئ الأولى للدين.

«كل مولود يولد على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه».

والمنزل من ناحية أخرى هو أول من يقدم للطفل التراث الاجتماعى الذى ورثه المجتمع عمن سبقه، فالعادات والتقاليد، والظواهر الاجتماعية المختلفة يتلقاها الطفل فى بيئته المنزلية.

الأولى قبل أن يذهب إلى المدرسة أو يخرج إلى المجتمع الكبير.

والشيخ عبد الحميد بن باديس فى منهجه الإصلاحى للمجتمع الجزائرى، وفى عمله التربوى لتلامذته يؤكد على ضرورة العناية بالأسرة باعتبارها النواة الأولى فى المجتمع لأن الأمة تتكون من مجموعات من الأسر، فإذا اعتنى كل فرد من أبناء الأمة بتعليم، أسرته، وتربيتها وتهذيبها ترتقى الأمة كلها بارتقاء مجموع أسرها، والعكس صحيح، يقول:

«على المرء أن يبدأ فى الإرشاد والهداية بأقرب الناس إليه، ثم من بعدهم على التدريج، وعندما يقوم كل واحد منا بإرشاد أهله، وأقرب الناس إليه لا نلبث أن نرى الخير قد انتشر فى المجتمع، فمن الأسر تتركب الأمة، فعندما يعنى كل واحد بأسرته - ترقى الأمة كلها بارتقاء أسرها كارتقاء أى كل بارتقاء أجزائه، فيكون المعتنى بأسرته فى الوقت نفسه معتنيا بأمته»[1].

---

(١) التفسير ص ٣٧٦.

ونظراً لأهمية الأسرة من الناحيتين التربوية والأخلاقية على الناشئين حثّ الدين الإسلامي الحنيف على العناية بها باعتبارها النواة الأولى للمجتمع، ومن مظاهر هذه العناية الحث على اختيار الزوجة بكل دقة . . باعتبارها الأم التى ستلد الأطفال وتقوم بتربيتهم وترعاهم، وبالتالى ترعى الأسرة، وتعمل على حفظ تماسكها، يقول رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» ويقول أيضا: «إياكم وخضراء الدمن، فقيل: ومن خضراء الدمن يارسول الله؟ قال: المرأة الجميلة فى المنبت السيئ».

فالإسلام يعنى بتربية الطفل أخلاقيا ونفسيا حتى قبل أن يولد، ولذلك يحث على التدقيق فى اختيار الزوجة، وقد أيدت الدراسات العلمية الحديثة قضية الوراثة الخلقية والأخلاقية بما لايدع مجالا للشك؛ لأن الإنسان يكتسب خلقه من ناحيتين:

الأولى هى الوراثة، والثانية هى البيئة، ومن هنا وجبت العناية بمسألة اختيار الزوجة الصالحة لأنها المدرسة الأولى والمربى الأكبر للأطفال، فعلى صلاحها واستقامة خلقها، وصحة بدنها يتوقف صلاح الطفل واستقامة خلقه وصحة بدنه والعكس صحيح.

ومن مظاهر تأثير المنزل على الطفل أنه المكان الذى يقضى فيه سنواته الأولى، التى يقول علماء التربية إنها السنوات الحاسمة فى حياته؛ لأنها ستطبع سلوكه وأخلاقه فى مستقبل الأيام بحيث لا يستطيع أن يتحرر من تأثيرها عليه أبدا. «إن أكثر الأمراض الخلقية كالأنانية والفوضى، وفقدان الثقة بالنفس، وعدم الشعور بالمسئولية والرياء والنفاق إنما تنتشر جرثومتها الأولى فى البيت، وعسير على المدرسة والمجتمع استئصال هذه الجرثومة بعد أن تتمكن وتزمن»(١).

وابن باديس من جهته يؤكد كثيرا على المنزل، ويراه المصنع الذى يصنع الرجال، وأن تربية الطفل أخلاقيا ودينيا إنما تتوقف على خلق المرأة وتدينها. يقول: «البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلى لتكوين الرجال، وتديّن الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذى نجده من ناحيتها فى رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية فى البيوت بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن»(٢).

---

(١) التربية وطرق التدريس ـ صالح عبد العزيز ـ جـ٢ ط الأولى ـ دار المعارف مصر ص ٢٦٩.
(٢) الشهاب جـ٨ م ١٢ ص٤٤٩ ـ ٤٥٣ نوفمبر ١٩٣٥م.

ولذلك بذلت جهود كبيرة من أجل تربية المرأة الجزائرية وتعليمها حتى تستطيع تربية أبنائها خلقيا، وتعليمهم كي يمكن تدارك مظاهر التدهور الخطير في أخلاق المجتمع الجزائري.

ومن ذلك أنه عندما أسس «جمعية التربية والتعليم» سنة ١٩٣٠م نص قانونها الأساسي على أن البنات يتعلمن فيها مجانا بخلاف البنين فقال: «فأما البنون فلا يدفع منهم واجب التعليم إلا القادرون، وأما البنات فيتعلمن مجانا لتتكون منهن ـ بإذن الله ـ المرأة المسلمة المتعلمة» (٣).

فهو قد أعفى البنات من دفع رسوم الاشتراك في التعليم شهريا سواء كن قادرات أو عاجزات؛ تشجيعا لهن على التعليم حتى تتكون منهن المرأة المتعلمة التي ستلعب دورها في تربية أطفالها وتعليمهم حتى يمكن القضاء على مظاهر التدهورين الأخلاقي والديني في رجال الجزائر، هذين التدهورين اللذين منشأهما جهل الأمهات، وقلة تدينهن، كما يقول ابن باديس.

ثانيا: المدرسة:

وإلى جانب المنزل أو الأسرة تلعب المدرسة دورها في تشكيل أخلاق الطفل في أول مجتمع يتصل به بعد أسرته، وفي رحابها يجتمع بخليط كبير من الأطفال الآخرين من طبقات مختلفة، ومن بيئات اجتماعية متعددة، منها الصالح ومنها الطالح، لذلك فإن فرص تشكيل الأطفال بالأخلاق الاجتماعية السليمة أمام المدرسة متوافرة جدا، ولذلك تعتبر المدرسة أعظم قوة أخلاقية في المجتمع بعد الأسرة، وهي باعتبارها مؤسسة اجتماعية تنوب عن الوالدين في تربية الأطفال وتعليمهم ـ لها ميزة خاصة على غيرها من المؤسسات الاجتماعية الأخرى وهي انفرادها بعملية نقل التراث الفكري الذي تتكون منه ثقافة المجتمع إلى الأجيال الصاعدة من أبنائها لإعدادهم للحياة فيه، والمحافظة على تراثه، ومن هنا يتجلى دور المدرسة في بناء الناحية الأخلاقية في شخصية الأطفال.

والتربية الحديثة تنادي بوجوب جعل مجتمع المدرسة مجتمعا طبيعيا يتأثر بالمجتمع الخارجي ويؤثر فيه، كي تتهيأ الفرص الكافية للأطفال للحياة حياة اجتماعية داخلها

---

(١) الشهاب جـ٢ م٧ ص١١٥ ـ ١١٧ مارس ١٩٣١م.

تشابه الحياة الاجتماعية خارجها إلى حد كبير من أجل إكسابهم السلوك الاجتماعى والمفاهيم والمعايير والأخلاق الاجتماعية، وبذلك تكون المدرسة مركز إشعاع فى المجتمع تؤثر فيه ويؤثر فيها، وتتاح للأطفال فيها فرص التشكيل الأخلاقى المنشود.

ثالثا: المجتمع:

والمجال الثالث والأخير للتربية الأخلاقية هو المجتمع بمؤسساته وأحزابه وتنظيماته الاجتماعية وهيئاته النقابية، والثقافية ونمط الحياة فيه، وطرق التعامل بين أفراده، وعاداته وتقاليده، فإن الأطفال يمتصون فى هذا المجتمع أساليب السلوك الذى يتعاملون به فيما بينهم ومع غيرهم. ومن هنا تلح التربية الحديثة والتربية الإسلامية بصفة خاصة على ضرورة التعاون بين المنزل والمدرسة فى التربية الأخلاقية للناشئين، والعمل بكل وسيلة ممكنة على توفير البيئة الاجتماعية الصالحة التى لا تهدم مايقوم المنزل والمدرسة ببنائه، لذلك يجب إصلاح المجتمع من مظاهر الاعوجاج والانحراف حتى لا يكون عاملا معوقا للتربية الأخلاقية المنشودة.

ورجال الإصلاح الإسلامى فى العصر الحديث أمثال الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا والشيخ عبد الحميد بن باديس، يرون أن التربية هى السبيل الوحيد لإصلاح المجتمع الإسلامى من مظاهر الشرك والبدع فى الدين، ومن عوامل الانحطاط الخلقى والتدهور الاجتماعى التى دبت فى كيانه بسبب الجهل، ونخرت قواه فتركته عاجزاً عن النهوض بمستواه ماديا وأدبيا واجتماعيا بين أمم العالم.

يقول الإمام محمد عبده: «إن الإنسان لا يكون إنسانا حقيقيا إلا بالتربية، وليس هى إلا عبارة عن اتباع الأصول التى جاء بها الأنبياء والمرسلون من الأحكام، والحكم، والتعاليم، وهى عبارة عن السعادة الحقيقية، تعلم الإنسان الصدق والأمانة، ومحبة نفسه، فإذا تربى الإنسان أحب نفسه لأجل أن يحب غيره، وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه».

ثم يعرج على ذكر التدهور الأخلاقى الذى انحدر إليه المجتمع الإسلامى فيقول: «فتأملوا فى فظاعة الأخلاق التى يشب عليها أبناء وبنات العامة من الأمة، ولا خلاص لنا من هذه الورطة الشنيعة إلا بالتربية الكاملة الشاملة للأبناء والبنات» (١).

---

(١) انظر تاريخ الإمام محمد عبده جـ٢ ص ٤٤٩ ـ ٤٧٠.

ويعبر ابن باديس عن الفكرة نفسها تقريبا فى مقال له نشره فى مجلة الشهاب تحت عنوان: «العامة المتعلمة»، فيقول: «إذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم فإن العامة التى تنتاب تلك المساجد تكون من العلم على حظ وافر وتتكون منها طبقة مثقفة الفكر، صحيحة العقيدة، بصيرة بالدين، فتكمل هى فى نفوسها ولا تهمل - وقد عرفت العلم وذاقت حلاوته - تعليم أبنائها وهكذا انتشر العلم فى الأمة ويكثر طلابه من أبنائها.

أما إذا خلت المساجد من الدروس كما هو حاليا اليوم - فى الغالب - فإن العامة تعمى عن العلم والدين وتنقطع علاقتها به، وتقل حرارة شوقها إليه، فتجسو نفسها وأبناءها وتمسى والدين فيها غريب» (١).

وإلى مثل هذا الرأى يذهب السيد رشيد رضا فى مجلة المنار فى مختلف أعدادها. «فهؤلاء المصلحون المسلمون يؤكدون على دور التربية فى إحداث عملية التغيير المنشودة فى المجتمع الإسلامى، والنهوض به فى كافة المجالات، وخصوصا فى جوانبه الأخلاقية التى انحطت إلى درجة وصفها الإمام محمد عبده «بالورطة الشنيعة».

ووصفها ابن باديس «بالتيه الذى نحن فيه» (٢).

والتربية عند جماعة مدرسة «التجديد الإسلامى» ومن أتباعها ابن باديس هى بصفة عامة، تربية مثالية تهدف إلى تكوين المجتمع الإسلامى الكامل عن طريق بث الخلق الكامل فى الفرد المسلم، وتشتق أغراضها وأهدافها من التربية الإسلامية التى أصلها القرآن الكريم من ناحية، ومن مشاكل المجتمع الإسلامى المعاصر من ناحية أخرى.

وسائل التربية الأخلاقية فى المدرسة:

للمدرسة فى التربية الأخلاقية وسيلتان:

الأولى مباشرة. والثانية غير مباشرة.

فالوسيلة المباشرة: هى تخصيص حصص فى الجدول الدراسى للتربية الأخلاقية تدرس فيها المثل العليا كالصدق والأمانة والوفاء بالعهد، والاستقامة الخلقية، والتعاون، والشجاعة، وقول كلمة الحق... إلى غير ذلك من الفضائل الفردية الاجتماعية، وتدرس هذه المثل بواسطة الشعر، والحكم، والوصايا، والدين، والقصص إلى غير ذلك.

---

(١) الشهاب ب جـ١١ م٦ ص٦٩٢ - ٦٩٣ ديسمبر ١٩٣٠م.

(٢) انظر التفسير ص ٢٣٤.

وقد انتقد بعض الباحثين هذه الوسيلة فى بث الأخلاق فى نفوس التلاميذ واعتبروها وسيلة غير ناجحة؛ لأنها طريقة نظرية وليست عملية، حيث تعتمد على أسلوب الوعظ والإرشاد فقط دون التدريب والتمرين العملى على السلوك الأخلاقى الحميد للمتعلمين (١).

أما الوسيلة غير المباشرة: فهى التى تعتمد على غرس الأخلاق الفاضلة فى نفوس التلاميذ، وبث العادات الحميدة والسلوك الاجتماعى المستقيم فيهم عن طريق غير مباشر فى أثناء تدريس المواد الدراسية المختلفة، بحيث لا تخصص حصص معينة للتربية الأخلاقية فى المجتمع «وإنما تصبح المواد الدراسية كلها مجالا واسعا للتربية الأخلاقية».

ويرى المربون من أنصار هذه الوسيلة أنها الطريقة المثلى فى تكوين الفضائل فى نفوس التلاميذ، وحملهم على السلوك الأخلاقى القويم وتدريبهم عليه فى مختلف النشاطات المدرسية، ويرون أن شخصية المعلم هى العامل الأساسى فى إنجاح أو فشل التربية الأخلاقية حيث يستطيع بما له من مكانة روحية لدى تلامذته أن يحملهم بطريق غير مباشر على السلوك الأخلاقى الحميد أو العكس.

كما أن النظام المدرسى ككل يلعب هو الآخر دوراً كبيراً فى تدريب التلاميذ على التعاون، والتضامن، والنظام والنظافة والتضحية بالمصالح الخاصة من أجل المصلحة العامة، والصدق والوفاء بالعهد، والأمانة والإخلاص إلى آخره.

كما أن النشاط المدرسى خارج حجرات الدراسة كالألعاب الرياضية والجمعيات الثقافية والفنية والهوايات المختلفة يلعب هو الآخر دوره فى التربية الأخلاقية المنشودة فى التلاميذ.

والشيخ عبد الحميد بن باديس يرى ضرورة الجمع بين الطريقتين: المباشرة وغير المباشرة فى التربية الأخلاقية، ويؤكد على قيام هذه التربية على أساس الأخلاق الإسلامية كما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يقول: «كما تحتاج الأبدان إلى غذاء من المطعوم والمشروب كذلك تحتاج العقول إلى غذاء من الأدب الراقى والعلم الصحيح، ولا يستقيم سلوك أمة، وتنقطع الرذيلة من طبقاتها وتنتشر الفضيلة إلا إذا تغذت عقول أبنائها بهذا الغذاء النفيس» (٢).

---

(١) التربية وطرق التدريس جـ٢ ص ٢٢٧ ـ ٢٧٨.

(٢) جريدة المنتقد العدد الأول يوليو ١٩٢٥م.

وقد تعرض ابن خلدون فى المقدمة إلى طريقة التربية التى كانت سائدة فى عصره وذكر: «بأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم ومايتحلونه من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما، وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها» (١).

فابن خلدون يجمع بين الطريقتين المباشرة وغيرالمباشرة فى التربية الأخلاقية، ولكنه يفضل الطريقة المباشرة على غيرها، على خلاف ما يذهب إليه الكثيرون من المربين المعاصرين، ويؤمن ابن باديس بأن شخصية المعلم تلعب دورا كبيرا فى هذا المجال، فالأطفال والمتعلمون بصفة عامة يقلدون مشايخهم أو أساتذتهم، ويتخذونهم قدوة لهم فى سلوكهم العام حتى ولو لم يشعروا بذلك.

«ولذا كانت التربية الإسلامية تتطلب من المعلم أن يكون المثل الأسمى للأخلاق كى تثمر العظة ويكون قدوة حسنة، فالخلق الكامل هو عماد التربية الإسلامية، والغرض من الحياة هو الأخلاق الكاملة أى الفضيلة» (٢).

كما تتطلب التربية الإسلامية من المعلم أن يتخذ التعليم والدروس وسائل نافعة فى تكوين العادات الحسنة لدى المتعلم وفى تهذيب أخلاقه، وإحياء ضميره، وتقوية إرادته، وتربية حواسه، وتوجيه ميوله الفطرية إلى الطريق المستقيم وتعويده فعل الخير واجتناب الشر.

اثر المعلم:

يقول ابن باديس تحت عنوان «أثر المعلم»: أغلب المعلمين فى المعاهد الإسلامية كالأزهر لا يتصلون بتلاميذهم إلا اتصالا عاما لا يتجاوز أوقات التعليم، فيتخرج التلامذة فى العلوم والفنون ولكن بدون تلك الروح الخاصة التى ينفخها المعلم فى تلميذه «إذا كانت للمعلم روح ويكون لها الأثر البارز فى أعماله العلمية فى سائر حياته» ثم يضيف ابن باديس: «فعلى المعلم الذى يريد أن يكون من تلامذته رجالا أن يشعرهم واحدا واحدا بأنه متصل بكل واحد منهم اتصالا خاصا زيادة على الاتصال العام، وأن

---

(١) مقدمة ابن خلدون ـ المكتبة التجارية مصر ص ٥٤١ .

(٢) التربية الإسلامية ـ محمد عطية الإبراشى ط القومية ص ٩٦ ـ ١٠٠ .

يصدق لهم هذا بعنايته خارج الدرس، بكل واحد منهم عناية خاصة فى سائر نواحى حياته حتى يشعر كل واحد منهم أنه فى طور تربية وتعليم فى كفالة أب روحى يعطف عليه، ويعنى به مثل أبيه أو أكثر»[1].

وقد كان ابن باديس يلتزم بما وجه به، فكان على اتصال وثيق بتلامذته فردا فردا، وكان بمثابة الأب الروحى لكل واحد منهم واستطاع بشخصيته القوية، وروحه الآسرة أن يكون للجزائر رجالا عملوا على بعث نهضتها وقادوها فى الطريق الذى اختطه لهم، وهو طريق العروبة والإسلام والوطنية والجزائرية، ومن هنا تبدو عبقرية ابن باديس فى تكوين الشباب، وتربية القادة تربية أخلاقية وقومية وعلمية من الطراز الغالى[2].

---

(١) الشهاب جـ٢ نوفمبر ١٩٣٥م ص ٤٥٠ .

(٢) مجلة الدعوة الإسلامية العدد السادس ـ مفهوم التربية عند ابن باديس د. محمد بن عمران ـ مركز بحوث العلوم الإنسانية ـ جامعة الفاتح ص ٢١٧ وما بعدها .

* الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه فى الإصلاح د. محمود قاسم ـ ط عالم الفكر ص ١٨٧ .

* التغريب الثقافى والتربية الإسلامية فى الجزائر ـ على الشامى ـ ط الفكر العربى العدد ٢١ ـ يوليو ١٩٨١م.

* الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده فى التربية والتعليم ـ ط الشركة الوطنية للنشر ـ الجزائر ١٩٧٤ ص١٨٣ .

* مجلة الشهاب ١٠، ١٢، ١٣ أجزاء ١، ٩، ١١ السنوات ١٩٣٤، ١٩٣٦، ١٩٣٧م .

الباب السادس

القيم عند ابن باديس

- الحكمة.
- النزعة العقلانية والأخلاقية.
- النزعة الإنسانية والجمالية.
- تكريم العقل.

القيم عند ابن باديس

الحكمة عند ابن باديس

إن معنى الحكمة عند ابن باديس هو «العلم الصحيح الثابت المثمر للعمل المتقن المبنى على ذلك العلم».

فالحكمة بهذا الاعتبار جمع بين النظر والعمل، بين الفكر والفعل، وربط بينهما أو إن شئت قلت إنها تطبيق النظر، وجعله واقعا حيا متقنا سواء كان ذلك فى ميدان العلم أو فى ميدان الأخلاق أو العقائد أو الآداب، ولذلك فإن ابن باديس شرح لنا هذا المعنى فى تلك الميادين كلها فقال: «فالعقائد الحقة والحقائق العلمية الراسخة فى النفس رسوخاً، تظهر آثارها على الأقوال والأعمال حكمة، والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة التى أثمرتها تلك العقائد حكمة والأخلاق الكريمة كالحلم والأناة ـ وهى علم وعمل نفسى ـ حكمة، والبيان عن هذا كله بالكلام الواضح الجامع حكمة، والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة التى أثمرتها والأخلاق والحقائق العلمية».

والذى يهمنا أن نشير إليه بهذا الصدد إنما هو الآراء الأخلاقية عند ابن باديس، وينبغى أن نبدأ أولا بتعريفه للخُلُق.

عرف ابن باديس الخُلُق وحدده بأنه «الملكة النفسية التى تصدر عنها الأفعال» ومن جهة أخرى فإنه ذهب إلى أن «الأخلاق فطرية، وأنها تنمو بالتربية وتنطمس بالإهمال».

الأخلاق الفاضلة التى هى موجودة فى فطرة الإنسان بأصولها وتنمو بحسن التربية، وتنطمس بالإهمال.

إن الكمال الإنسانى عند ابن باديس يرجع إلى توافر عناصر ثلاثة:

أ ـ العلم　　ب ـ الإرادة　　جـ ـ العمل

وقد اعتبرها أصولا للكمال وللسلوك الحميد: «إن الكمال الإنسانى متوقف على قوة العلم وقوة الإرادة، وقوة العمل».

ويرى ابن باديس أن القيم الخلقية فطرية ولكن أضاف إلى ذلك أن أوامر الشرع آتية على مقتضى العقل: «إن أوامر الشرع ونواهيه هى على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة، وإنه تعالى لا يأمر بقبيح، ولا ينهى عن حسن».

أما العلاقة بين الأخلاق والعلم وبينها وبين العقائد فقد أوضح لنا أن العلم قبل السلوك، وأن الأخلاق ناشئة عن العقائد «لأن الأخلاق ناشئة عن العقائد ولازمة لها».

وقرر أيضا أن الأعمال مبنية على العقائد وعلى الأخلاق، ولذلك ذكر أن الاهتمام الأكبر ينبغى أن يوجه إلى هذه الناحية «إن الذى نوجه إليه الاهتمام الأعظم فى تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر».

وقد نقد ابن باديس المدنية الغربية وبين لنا أنها فتنت المسلمين بمظهرها المادى وأدرك منهجها وغايتها، ورد على بعض المفسرين الذين يحاولون أن يفسروا معنى الصالحين بالأوربيين، وذهب إلى أن المسلمين فتنوا بأم الغرب، وفتنوا هم أيضا بنا لجهلنا وفقرنا وضعفنا، فحجبنا حقيقة الإسلام، فكنا بذلك فتنة عظيمة عليهم، ونراهم نحن فى عزة وسيادة وتقدم علمى وحضارى فنندفع فى تقليدهم فى معايبهم ومفاسدهم، ونزدرى كل شىء عندنا حتى أعز عزيز لدينا [1].

النزعة العقلانية والأخلاقية عند ابن باديس

ليس من شك فى أن ابن باديس من أعظم هؤلاء الذين أججوا الوعى الذاتى وأوروا ناره، ونفخوا فيه الحياة، وجددوا ما انطمس من معالمه، وأزالوا عنه ما ران عليه من ظلمات قاتمة، وما أحاط به من خمود قاتل، وما أصابه من وهن مضن أليم، إذ انبعث بما أوتى من روح وثّابة، وذكاء نافذ إلى التجديدين العقلى والأخلاقى.

نادى ابن باديس بتكريم العقل، وتكريم العقل إنما هو تنزيه «عن الأوهام والشكوك والخرافات والضلالات، وتكريم العقل هو أيضا ربطه بالعلوم والمعارف، وصحيح الاعتقادات».

---

(١) عمار الطالبى ـ الشعب الجزائرية ١٩٧١م.

وذهب إلى أن التفكير والروية من أفضل الأعمال الإنسانية وإلى أن أفضل الذكر من بين العبادات، وإنما هو «التفكير والتدبر فى أفضل المعانى، وهى معانى القرآن الكريم، وإن التفكير فى عظمة الله وجلاله، وفى الكون، وجميع المخلوقات من أعظم الأذكار وأجلها وأفضلها.

ميز ابن باديس ماسماه بالإسلام الوراثى التقليدى وبين ماسماه بالإسلام الذاتى، وبيَّن لنا أن الفرق بينهما هو أن الإسلام الذاتى هو الإسلام الحقيقى «فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام ويدرك محاسن الإسلام فى عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله»، ويبنى ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبركاته، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، فحياته حياة فكر وإيمان وعمل ومحبة للإسلام محبة عقلية قلبية بحكم العقل والبرهان، كما هى بمقتضى الشعور والوجدان.

أما الإسلام الوراثى فهو إسلام من يأخذ عقائده عن طريق التقليد فيدخل فيها ما ليس منها بحكم الوراثة من عقائد باطلة، وعادات فاسدة، وهو ذلك الإسلام الذى يتصوره معتقده على أساس من تصور آبائه دون نظر ولا تفكير ومحبة هذا المعتقد للإسلام على هذا النحو، إنما هى محبة عاطفية بحكم الوجدان فحسب، وهو إسلام معظم عوام المسلمين الذين أدخلوا فيه من البدع الاعتقادية والعملية ما يأباه الإسلام فى أصوله ومنابعه، والإسلام الوراثى أيضا هو ما بُنى على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر.

إن الإسلام الذاتى هو الإسلام الذى جاء به القرآن الكريم وأمرنا أن نقيمه على الفكر ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾. [سورة سبأ الآية ٤٦].

إن الأمم فى نظر ابن باديس لا تنهض إلا بالتفكير فى الطبيعة وفى آيات الله، ولا تتقدم إلا ببناء أعمالها وأحكامها وأقوالها على الفكر، وذلك وحده هو سبيل الحضارة والعمران واستغلال الكون.

ودعا إلى أن يكون إسلامنا ذاتيا أى إسلاما حقيقيا أصله القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولا يكون إلا عن طريق التعليم، يعلم الإسلام للبنين والبنات وللرجال والنساء.

وقرر أنه : لا حياة إلا بالعلم، وذهب إلى أن القرآن الكريم نفسه معجزة علمية عقلية، أى أن الإنسان العاقل إذا فكر فيه خضع لسلطانه لأنه برهان لا يقوى على معارضته، ولأن القرآن الكريم آية كبرى على مر العصور لانبنائه على الاحتجاج بالعقل والعلم.

وأوضح لنا أن الدين الإسلامى دين عقلى إنسانى فقال: لقد أعطانا الله سبحانه من هذا الدين الإنسانى من هذا الدين العقلى الروحى ما يكمل عقولنا ويهدى أرواحنا.

دعا ابن باديس إلى استقلال الفكر سواء فى ميدان الحياة أو فى ميدان التربية باعتبار أن التفكير لازم للإنسان فى جميع أموره صغيرها وكبيرها، فقال: إذا كان التفكير لازما للإنسان فى جميع شئونه وكل ما يتصل به إدراكه فهو لطلاب العلم ألزم من كل إنسان، فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل، وفيما ينظر من الأدلة تفكيرا صحيحا مستقلا عن تفكير غيره، وإنما يعرف تفكير غيره ليستعين به، ثم لابد له من استعماله فكره هو بنفسه.

بهذا التفكير الاستقلالى يصل الطالب إلى ما يطمئن له قلبه ويسمى ـ حقيقة ـ علما وبه يأمن الوقوع فيما أخطأ فيه غيره، ويحسن التخلص منه إن وقع فيه.

وقد أكد الاستقلال الفكرى أكثر ما أكده، وألح عليه أكثر ما ألح فى الميدانين العلمى والتربوى، لذلك دعا الطلاب إلى الاستقلال العقلى فى البحث والنظر فقال: «فالتفكير التفكير يا طلبة العلم! فإن القراءة بلا تفكير لاتوصل إلى شىء من العلم، وإنما تربط صاحبها فى صخرة الجمود والتقليد، وخير منهما الجهل البسيط».

وذهب ابن باديس إلى أن العقل قد تصيبه أمراض، وشرح لنا أن هذه الأمراض متعددة منها «جمود النظر، وفساد الإدراك، وتقليد الآباء، واعتقاد الباطل، والشك فى الحق، كما أن النفوس قد تعتريها أمراض بفساد الأخلاق واتباع الهوى وإذا مرضت العقول، وأصيبت النفوس بالانحراف فسدت الأعمال لأنها تابعة لهما تصلح بصلاحهما، وتفسد بفسادهما»[1].

---

(١) مقال لعمار الطالبى بتصرف الشعب الجزائرية ١٩٧١م.

النزعة الإنسانية والجمالية عند ابن باديس

إذا كان ابن باديس ينزع نزعة إنسانية فإنه لم يمنعه ذلك من أن يعتبر خدمة وطنه وخدمة أمته سبيلا طبيعية لخدمة الإنسانية ما لم نخدم أوطاننا وشعوبنا. قال ابن باديس:

«إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها والحدب عليها في جميع أوطانها واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده، ونرمي إليه ونعمل على تربيتنا وتربية من آلينا عليه، ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة، فوجدت التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع».

وقد استمد ابن باديس هذه النزعة الإنسانية من التصور القرآني للحقيقة الإنسانية، تلك الحقيقة التي احترمت الكائن البشري وأولته الدرجة الأولى من الكرامة، وأوضحت للناس أجمع أن بني الإنسان من طينة واحدة، وأن هذه الطينة أو تلك الطبيعة تتساوى فيها جميع الأجناس. إن القرآن الكريم قد صرح بالكرامة الإنسانية تصريحا لا تشوبه شائبة من شك أو تحوم حوله حائمة من ظن، يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [سورة الإسراء الآية ٧٠].

كما عبر لنا القرآن عن أصل الطبيعة الإنسانية الواحد، وعن أرومتها المتحدة التي استند إليها في دعوته إلى التعاطف والتراحم والمحبة، والأخوة، فخاطب بني آدم كافة بهذا النداء العميق الذي يتوجه إلى فطرة كل كائن من الكائنات الناطقة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [سورة النساء الآية الأولى].

بل إن القرآن الكريم اعتبر الاعتداء على الموجود البشري اعتداء على البشرية قاطبة، كما أن إحياء فرد واحد إحياء للحقيقة الإنسانية كلها:

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة المائدة الآية ٣٢] .

واحترم الإسلام أديان الآخرين وأفكارهم وعقائدهم قال تعالى :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون الآية ٦] .

ودعا إلى التعايش السلمى بين مناهج الناس فى الحياة وتصوراتهم لها ، وهون عليهم أمر الاختلاف فيها . يقول جل فى علاه :

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة المائدة الآية ٤٨] .

وشرع القرآن الكريم للإنسان مبدأ العدل العام حتى مع العدو :

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة الآية ٨] .

وقرر الإسلام مبدأ أخلاقيا اجتماعيا حضاريا فى مخاطبة الإنسان لأخيه الإنسان فأمر بأن يكون خطابا لطيفا لينا جميلا .

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [سورة البقرة الآية ٨٣] .

وهكذا فهم ابن باديس أصول المذهب الإنسانى الإسلامى وحللها فيما كتب وفيما شافه به أمته ، وانتهى فى تصوره للحقيقة الإسلامية إلى القول بأنها حقيقة دينية إنسانية فقال : «علمنا أنه دين الإنسانية . . . فإذا عشت له فإنى أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها فى جميع أجناسها وأوطانها ، وفى جميع مظاهر عاطفتها وأفكارها» .

وآمن ابن باديس بوطن الإنسانية العام ، كما آمن بأوطان أخرى خاصة تبدأ من الجزائر ثم المغرب ثم الوطن العربى ، فالوطن الإسلامى ، وتنتهى بوطن الإنسان من حيث هو إنسان .

أحب ابن باديس الإنسانية وبغض من يبغضها أو يظلمها أو سولت له نفسه أن ينال

من كرامهتا، وعبر لنا عن هذه النزعة الإنسانية القائمة على الحب فى صورة واضحة جميلة واقعية فيها تأكيد لهذا المعنى وإلحاح فى الإبانة عنه فقال:

«إننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلاً، ونحب وطننا ونعتبره منها جزءا، أو نحب من يحب الإنسانية ويخدمها، ونبغض من يبغضها ويظلمها».

فليس هناك فى نظره أى تناقض بين حب الوطن وحب الإنسانية، بل إنه رد على أولئك الذين ينكرون الأوطان الخاصة لأنها بزعمهم ضد إنسانيتهم، فالإنسان فيما يرى ابن باديس إذا أحب وطنه، وغذى عقله بالمعرفة السليمة فإنه يشعر بالحب العميق لكل من يجد فيهم صورته الإنسانية، وكانت الأرض كلها وطنا له، وهذا وطنه الأكبر، هذا ترتيب طبيعى لا طفرة فيه ولا معدل عنه، فلا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من عرف وأحب الوطن الأصغر.

وأنكر ابن باديس على أولئك الذين يسمهم بالأنانية لأنهم لا يعترفون إلا بالوطن الضيق، كما أنكر على الذين يضرون بالأوطان الأخرى فى سبيل وطنهم الكبير، وهؤلاء عنده شر وبلاء على البشرية جمعاء، ونعى أيضاً على الذين لا يعترفون إلا بالوطن الأكبر، وضربوا صفحا عن الوطنيات والأديان، وكأنه يقصد بذلك الشيوعيين الذين وصفهم بأنهم عاكسوا الطبيعة.

أما الوطنية الإسلامية فى نظره فهى الوطنية التى تعترف بالوطنيات كلها وتنزلها منزلتها غير عادية ولا معدو عليها، وترتبها ترتيبها الطبيعى حيث تنبنى كل واحدة منها على ما قبلها، وتعتبر دعامة لما بعدها، والإنسان هو الذى يجد صورته وسعادته فى وطنه الصغير، كما يجدها فى الإنسانية كلها، فالوطنية الإسلامية تحافظ على الأسرة بجميع مكوناتها، وعلى الأمة بجميع مقوماتها وتحترم الإنسانية فى جميع أجناسها وأديانها.

وأوضح لنا ابن باديس أنه يهدف إلى التقريب بين جميع العناصر الإنسانية ويجاهد من أجل ذلك ويحترمها رغم اختلاف الأديان والأجناس، وربط ذلك كله بصفته إنسانا مسلما: «أنا كمسلم أدين بالأخوة الإنسانية وأحترمها فى جميع أجناسها وأديانها، وأسعى للتقريب بين جميع عناصرها وأجاهد فيما هو السبيل الوحيد لتحصيل ذلك وهو العدل والتناصف والاحترام».

وبما أن ابن باديس يعتبر من المربين الممتازين، فإنه بنى عمله التربوى على المحبة وعلى زرعها فى القلوب التى أراد أن يثبت فى أعماقها حب الإنسانية بجميع أجناسها وأديانها، وأن يعلمها الأخوة الإنسانية ووصف نفسه بأنه زارع محبة فقال: «أنا زارع محبة ولكن على أساس من العدل والإنصاف والاحترام مع كل أحد من أى جنس كان ومن أى دين كان، من كل جنس من كل دين، فاعملوا للأخوة ولكن مع من يعمل للأخوة فبذلك تكون الأخوة صادقة».

ويشعر القارئ بإلحاح ابن باديس على التحفظ فى هذه النزعة وعلى تقييدها بقيود العدل والإنصاف والاحترام المتبادل، والواقع أن هذا يعود إلى ظروفه الاجتماعية والسياسية؛ إذ إن المستعمرين لا يحترمون إنسانية الإنسان الجزائرى.

وقد أبان ابن باديس عن ذلك فى قصيدته المشهورة:

من كان يبغى ودنا ... فعلى الكرامة والرحب
أو كان يبغى ذلنا ... فله المهانة والحرب
هذا نظام حياتنا ... بالنور خُطّ وباللهب

وأنشأ قصيدة أخرى عنوانها: «القومية الإنسانية» جاء فيها قوله:

قومى هم وبنو الإنسان كلهم ... عشيرتى وهدى الإسلام مطلبى

رأى ابن باديس فى الفن والجمال:

لم يكن ابن باديس من أولئك الفقهاء الذين لا يفكرون إلا فى القيم الأخلاقية والمنطقية، بل إنه اهتم بالقيم الجمالية أيضا، فكتب مقالا عنوانه: «الفن الأدبى فى الحديث النبوى» فتحدث عن جمال الصوت وعن الصورة الرائعة التى صور بها النبى - صلى الله عليه وسلم - النساء فى قوله مما رواه البخارى فى صحيحه عن أبى قلابة عن ثابت البنانى عن قتادة عن أنس أنه كان للنبى حاد يقال له: أنجشة وكان حسن الصوت، وكان النبى فى مسير له: فحدا الحادى وكان يحدو بهن، فقال له النبى: «ويحك أنجشة رويدا بالقوارير» وذلك أنه لما غنى أنجشة للإبل وكان على ظهورها النساء أخذت فى السير ونشطت واندفعت، فأتعبهن ذلك السير وأشفق النبى عليهن؛ فأمر الغلام الفارسى الحادى وهو أنجشة أن يرفق بهن لشدة ما يجدن من الاضطراب على ظهور الإبل، وهى تسرع فى سيرها، فعبر عن ذلك بصورة جذابة فشبه النساء بالقوارير أو

الزجاجات لما فيها من بياض ولمعان ورقة، ولما فى النساء أيضا من رقة العواطف ولطفها وسرعة انكسار قلوبهن وتأثيرها وعسر انجبارها.

وقد حاول ابن باديس أن يعرف لنا مفهوم الفن فبين لنا أنه: «إدراك صفات الشيء على ما هى عليه من حسن وقبح إدراكا صحيحا، والشعور بها كذلك شعوراً صادقاً، والتصوير لها تصويراً مطابقا بالتعبير عنها بعبارات بليغة فى الإبانة والمطابقة للحال ذلك هو الفن الأدبى».

فالفن الأدبى عند ابن باديس يتكون من عناصر إدراكية شعورية وتعبيرية ومن مطابقة، والفنان هو ذلك الإنسان الذى يدرك صفات الشيء الحسنة والقبيحة إدراكًا صحيحاً، وهو الذى يشعر بتلك الصفات وينفعل بها بصدق، ثم يعبر عن إدراكه وتجربته الشعورية تعبيرا مبينا بليغا، على أن يكون ذلك مطابقا للحال. ويلاحظ القارئ أن ابن باديس جرى على رأى رجال البلاغة فى أصل من أصول البلاغة والنقد، ألا وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، كما أنه اشترط فى التصوير أن يكون مطابقا، فكأن المطابقة هنا تشبه لحد ما مايسميه أرسطو بالمحاكاة، والواقع أن الفنان يبدع الصور، ويضفى على الأشياء أخيلة وظلالا ذاتية ما كان لها أن تعتبر مطابقة للواقع الخارجى أو محاكية له، ويمكن القول بأن ابن باديس ذهب فى الفن مذهبا منطقيا يتصل بالحق أكثر من اتصاله بالإبداع الفنى؛ لأنه اعتبر الفن إدراكًا لصفات الشيء على ما هى عليه فى الواقع فى العالم الخارجى على نحو ما يتصور الفلاسفة الحقيقة التى يرون أنها مطابقة فى عالم الأذهان لما فى عالم الأعيان.

ولم يكن بهذا الاعتبار مثل شيء جديد أبدعه الفنان سوى التعبير الذى يمتاز بالإبانة والبلاغة، ولكننا نجد ابن باديس يضيف إلى عناصر الصورة الأدبية الفنية عنصراً آخر يتوجها وهو اللذة التى تحصل للمتذوق؛ لأن هذه اللذة فى نظر ابن باديس تدفع عن الإنسان ما يجده من متاعب الحياة وأوصابها وآلامها لأن الآثار الفنية تدخل على النفوس انشراحا وبهجة وصفاء.

وأدرك ابن باديس أيضا ما يسمى فى الفن بالتواصل أو المشاركة الوجدانية، فقال: «لذا كان أكثر الفن الأدبى فى تصوير الحسن وعرضه على الناس؛ ليشاركوا الفنان فى إدراك ذلك الحسن، والشعورية والتذوق للذة ذلك الإدراك والشعور».

وبين لنا باعتباره مربيا ومعلما دور تربية الذوق الجمالى، وغرسه فى النفوس لتتمكن من الشعور بما فى هذا الكون من آيات الجمال، وذكر أن القرآن الكريم مفعم بصور ومشاهد تعرض علينا آفاق الكون فى صورها الجذابة الجميلة، وأشار أيضا إلى

أن الحديث النبوى يشتمل على روائع من الفن الأدبى، وخوالد من الآثار الرفيعة، كما أنه استشهد بقصيدة كعب بن زهير الذائعة التى ألقاها أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوصف المرأة والماء الذى مزجت به الخمرة والناقة وصورها تصويرا فنيا، ولم ينكر عليه لأنه لم يكن يصف شخصا معينا يؤدى وصفه إلى إثارة الشهوة البهيمية نحوه، وإنما للنفوس البشرية صورها الجمالية، وتنمى فيها قوة الشعور والذوق.

ولم يخف ابن باديس أن ينبهنا إلى ما فى الحديث من فقه نفسى، فحلل الحديث تحليلا فقهيا نفسيا، وأوضح أن فيه تنبيها على نبذ التشدد والتنطع فيما لا عيب فيه، ولا قبح فى معناه، ولا فحش فى لفظه من جهة وفيه أيضا «التنبيه على المحافظة على قلوبهن (النساء) وعواطفهن ليدوم ودهن وسلامتهن، ويدوم الهناء معهن والاستمتاع بهن لأنهن ضعيفات القلوب، رقيقات العواطف، شديدات الإحساس، يصبرن على كل شىء من الرجل إلا على كسر قلوبهن ومس عواطفهن».

ومن جهة أخرى نجد ابن باديس يتصور الإسلام على أنه حقيقة قائمة على عناصر ثلاثة: أ ـ الحياة ب ـ العلم جـ ـ الفن

فقال: «الإسلام دين الحياة والعلم والفن، والحياة قوة وإيمان وجمال، والعلم يمثل القوة، والفن يمثل الجمال». بيد أن ابن باديس ربط بين القيمة الجمالية والقيمة الخلقية فذهب إلى أن الدعوة إلى الجمال والتحبيب فيه فى جميع مظاهر الحياة أن يكون فى إطار العفاف والفضيلة، وساق عدة آيات قرآنية فى هذا المعنى منها قوله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين الآية ٤].

وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [سورة غافر الآية ٦٤].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ [سورة يونس الآية ٢٤].

وقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [سورة النمل الآية ٦٠].

وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [سورة الأعراف الآية ٣٢].

وقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة النور الآية ٣٠].

ويرى ابن باديس أن القرآن الكريم نفسه استخدم الصور الجمالية فى الدعوة إلى الهداية وإلى التأمل فى الطبيعة: «يعرض علينا القرآن صورا من العالمين العلوى والسفلى فى بيان بديع جذاب يشوّقنا إلى التأمل فيها والتعمق فى أسرارها».

إن الجمال فى نظر ابن باديس يصبح فتنة إن لم يُحَطْ بسياج من الأخلاق، وإذا كان العالم ينطوى على جمال فإنه قد يصير شرا وبلاء على من اتبع هواه واستعبد عقله: «هذا العالم بمائه وأرضه وأزواجه هو فتنة للإنسان بما فيه من لذائذ ومن جمال».

إن ابن باديس زارع محبة، وداع إلى المعانى الحقيقية للمذهب الإنسانى وإلى رحابة الأفق، وعلم الناس أن الجمال مقوم من مقومات الحضارة، وأن التربية الجمالية وتنمية الذوق من أسس التربية الخلاقة للشخصية الحرة الشاعرة بذاتيتها وحريتها وقوتها المتذوقة لما فى العالم من جمال، المتعاطفة مع ما فى الإنسان من محبة، وما فى جوهره من كرامة متأصلة [1].

وبعد،

فلعل ما سبق يرسم الخطوط الرئيسة للنزعة الإنسانية والجمالية فى فكر عبد الحميد ابن باديس.

تكريم العقل

يقول ابن باديس:

«لكل إنسان فطرته وعقله فعلينا إذا دعينا إلى شىء أن نعرضه عليهما، راجعين إلى الفطرة الإنسانية، وإلى العقل البشرى، منزهين عن الأغراض والأهواء والأوهام والشبهات، وتجد القرآن الكريم يخاطب العقل والفطرة ليعلمنا الرجوع إليهما والاستفادة منهما».

لقد نادى ابن باديس بتكريم العقل، وتكريم العقل إنما هو تنزيهه ـ كما يقول أيضا ـ عن الأوهام والشكوك والخرافات وربطه بالعلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات.

وذهب إلى أن التفكير والروية من أفضل الأعمال الإنسانية، وميّز بين ما سماه

---

(١) انظر مجلة الأصالة العدد السابع السنة الثانية صفر ١٣٩٢هـ ط الجزائر. وأيضا دراسات ثقافية وأدبية د/ عمار الطالبى ص ٤٩ ـ ٥٣ بتصرف.

بالإسلام الوراثي والتقليدي، وبين ما سماه بالإسلام الذاتي، وبيّن لنا أن الفرق بينهما هو أن الإسلام الذاتي هو الإسلام الحقيقي:

إفهام من يفهم قواعد الإسلام، ويدرك محاسن الإسلام في عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله، ويبني ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبركاته، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، فحياته حياة فكر وإيمان، وعمل ومحبة للإسلام محبة عقلية قلبية بحكم العقل والبرهان كما هي بمقتضى الشعور والوجدان.

أما الإسلام الوراثي فهو إسلام من يأخذ عقائده عن طريق التقليد فيدخل فيها ما ليس منها بحكم الوراثة من عقائد باطلة، وعادات فاسدة، وهو ذلك الإسلام الذي يتصوره معتقده على أساس من تصور آبائه دون نظر ولا تفكير ومحبة، وهو إسلام معظم عوام المسلمين الذين أدخلوا فيه من البدع الاعتقادية والعملية ما يأباه الإسلام في «أصوله ومنابعه» وهو ما بني على الجمود والتقليد، فلا فكر ولا نظر ـ كما يقول ابن باديس.

ودعا الشيخ إلى استقلال الفكر سواء في ميدان الحياة أو في ميدان التربية، وبين لنا أن المناظرة في العلم وفي الدين أصل من أصول الشرع، وعلى هذه المبادئ شجب الشيخ طرق علماء الكلام وتخيلات المتصوفة والفلاسفة الذين تمسكوا بالفروع الشرعية وبعدوا عن الأصول التي أقامها القرآن الكريم وأوضحتها السنة النبوية المطهرة، واتبعوا الفروع المجردة عن أصولها وحكمتها . . . هكذا أثار الشيخ في إحدى مقالاته.

وكان لابن باديس نظرات أخلاقية صادقة أجاد استنباطها من القرآن الكريم في يسر ودون اصطلاحات فلسفية معقدة. فهو يربط صلاح الفرد بصلاح المجتمع، ويرى أن الإسلام دين تفاؤل ومستقبل، فلا يأس ولا قنوط. ويعلي من شأن العلم؛ لأن العلم الصحيح والخلق المتين أصلان ينبني عليهما كمال الإنسان، ولما كان الدين يدعو إلى العقل فمن واجب العقل أن ينسق معلوماته، ويصحح إدراكه لحقائقها ونسبها حتى تكثر اكتشافاته في عالمي المحسوس والمعقول.

«من ذلك يتضح أن الإمام ابن باديس من أنصار الفكرة العلمية الحديثة التي تقول بأن نظام الكون مطرد وعام، والتي يطلق عليها المناطقة المحدثون اسم مبدأ «الحتمية في الطبيعة» وهو أساس التقدم العلمي في العصر الراهن، وليس في الاعتماد على الله ما يتعارض مع حثه على البحث والعمل، ولا في الإيمان به ما يتعارض وفكرة السببية».

وهكذا يكرم ابن باديس العقل، ويدعو إلى احترامه، فهو منحة من عند الخالق الأعظم.